١١٨

إلى بيت الله الحرام
«اليوم أكملت لكم دينكم»

* ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

[سورة آل عمران: آية ٧٩].

* ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾.

[سورة المائدة: آية ٣].

* ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾.

[سورة النصر].

* * *

«المسجد النبوى بالمدينة النبى ﷺ يداوم على الخروج إلى أصحابه والمسلمين، فيحدثهم ويسمع منهم، ويجيب على أسئلتهم وما قد يعن لهم.. ولكن البعض جعل يشرد إلى أسئلة قد تضيق إجابتها عليه وعلى المسلمين، وقد يؤذى جوابها السائل نفسه، فمنهم من يسأل مَنْ أبوه، وآخر يسأل عن ناقته التى ضلت، ومنهم من يتنطع فيسأل عن البَحِيرَةِ (الناقة التى كانت تشق أذنها فى الجاهلية وتعفى من العمل إذا ولدت خمسة أبطن)، وعن السائبة (الناقة المهملة التى تترك فى الجاهلية للآلهة إذا ولدت أنثى فأنثى، وعن الحامى (ما طال مكثه من الإبل عند أصحابه فى الجاهلية حتى صار له عشرة أبطن فحموا ظهره وتركوه)، ومنهم من لا يكتفى بما يبينه ﷺ من الحلال والحرام، فيلح ويلحف فى السؤال فيما قد تشق إجابته عليه وعلى المسلمين».

«الرسول عليه السلام على منبره بالمسجد النبوى يتحدث إلى المسلمين، فى أمور الحج، فيتلو عليهم ما كان قد تنزل من سورة آل عمران فى الحج..».

الرسول : (يتلو) ﴿ فِيهِ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [سورة آل عمران: آية ٩٧]. (يستأنف) يا أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا.

أحد الأعراب : (سائلاً) أفى كل عام يا رسول الله؟

«الرسول عليه الصلاة والسلام ساكت.. لا يجيب».

الأعرابى : (معاودًا) أفى كل عام يا رسول الله؟

* * *

«الرسول ساكت.. لا يجيب – ينهض عكاشة ابن محصن الأسدى فيلح فى السؤال..».

الأسدى : (ملحًا) أفى كل عام يا رسول الله؟

الرسول : «لا» (يستأنف) ولو قلت «نعم» لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، ولو لم تطيقوا لكفرتم، فاتركونى ما تركتكم، فإذا أمرتكم بشىء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شىء فانتهوا عنه. (يستأنف) ويحك! ماذا يوفيك أن أقول نعم؟ والله لو قلت نعم لوجبت ولتركتم وكفرتم!! إنما أهلك الذين قبلكم أئمة الحرج، والله لو أنى حللت لكم جميع ما فى الأرض، وحرمت عليكم منها موضع خُفٍّ، لوقعتم فيه!

«تعلو همهمات التسليم بين المسلمين».

* * *

«النبى ﷺ يخاطب المسلمين فى المسجد النبوى، وقد ضاق بالأسئلة التى تلقى بغير طائل، واستكثر ما يشتت به بعض المسلمين أنفسهم، فاتجه عليه السلام إلى الحاضرين..».

النبى : سلونى، فإنكم لا تسألونى اليوم عن شىء إلاَّ بينته لكم!

«يبدو الإشفاق على الصحابة وقد لاحظوا الضيق فى عبارة الرحمة المهداة، وخشوا أن يكون بين يديه أمر قد حضر.. وتمنوا ألاَّ يُلقى أحدٌ بسؤال شارد فى غير محله.. وإنهم لفى إشفاقهم، ينهض رجل من بنى سهم، يقال له: عبد الله بن حذافة بن قيس، وكان إذا ما لاحى أحدًا، دُعى إلى غير أبيه، ويشق عليه ذلك، فيتجه إلى رسول الله عليه السلام سائلاً..».

عبد الله بن حذافة : (مترددًا بإشفاق) يا نبى الله، مَنْ أبى؟

الرسول : (فى صبر وضيق) أبوك حذافة بن قيس.

«عمر بن الخطاب وقد استشرف الغضب على محيّا الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام، وعلا نشيج الناس، فجثا على ركبتيه أمامه، وطفق يقول..».

عمر بن الخطاب : (مستعطفًا وهو جاث على ركبتيه) يا رسول الله.. لقد رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا.. ونعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله.. فاعف عنا عفا الله عنك!

«لا يزال عمر يستعطف النبى ﷺ حتى رضى.. وعلت تكبيرات المسلمين..».

النبى : أما والذى نفسى بيده، لقد صورت لى الجنة والنار آنفًا فى عرض هذا الحائط، فلم أر كاليوم فى الخير والشر.. غفر الله لكم..

«ينصرف عليه الصلاة والسلام محوطًا بتكبيرات المسلمين.. فى أعقابه يخرج عبد الله ابن حذافة بن قيس، وقد اطمأن خاطره، فتلقاه أمه أمام المسجد النبوى..».

أم عبد الله : (معاتبة) لقد عَرَّضتنى.. ما رأيت ولدًا أعقّ منك قط! أتأمن أن تكون أمك قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس؟!

عبد الله بن حذافة : (لأمه معتذرًا) لو دعانى عبد أسود للحقته واتبعته. (مستأنفًا) إنى أردت أن أستريح!

«النبى ﷺ فى خلوته يتعبد ويتحنث ويتهجد وقد ألم بخاطره ما كان بينه وبين المسلمين، وما ألح به البعض فى شأن الحج وهل هو واجب فى كل عام.. يتنزل عليه الروح الأمين، فيلقنه من كلمات ربه..».

الرسول : (يتلو) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة: آية ١٠١].

(يرتفع الوحى)

* * *

«الرسول عليه الصلاة والسلام بين صحابته بالمسجد النبوى، وقد تلا عليهم ما تنزل عليه من القرآن الحكيم.. يمضى بهم الحديث وقد

هدأت النفوس وقرت العيون، فيبادر عليه السلام صحابته والمسلمين قائلاً..».

الرسول (ناصحًا) إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحَدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها..

* * *

«المسجد النبوى بالمدينة، فى ذى القعدة للسنة العاشرة للهجرة، وقد هلت نسائم التجهز للحج إلى بيت الله الحرام.. المسلمون يستقبلون الحج هذا العام استقبالاً خاصًا.. فرسول الله ﷺ سيخرج عليهم إلى الحج، وهى أول حجة له بعد الهجرة يحرم فيها من المدينة..».

«قد استقبلت المدينة من أيام وفدًا فى خمسة عشر رجلاً من الرهاويين، من قبيلة «رهاوة» باليمن.. نزلوا ضيوفًا بدار رملة بنت الحارث، معلنين إسلامهم، ولقيهم الرسول عليه السلام فتحدث معهم طويلاً.. وأهدوا إليه فرسًا يقال له المرْوَاح، وأقاموا يتعلمون القرآن والفرائض، وينتظرون القيام مع الرسول بالرحلة المباركة للحج إلى بيت الله الحرام..».

«الرهاويون بين المسلمين بالمسجد النبوى، يصلون ويتدارسون ما يلقيه عليهم السابقون للإسلام.. وإذ هم فى صلاتهم وتدارسهم، يلحق بهم رهط

من قومهم أتوا ليحجوا مع رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلبثوا معهم انتظارًا لليوم الميمون..».

* * *

«المدينة بعد سنوات من فتح مكة، ونزول منع المشركين من ارتياد المسجد الحرام.. المسلمون يشق عليهم ما يترتب على هذا النهى من مشقة وعسر، يتساءلون من الذى يأتيهم فى مكة بالطعام والمتاع، بينما هم قائمون بمناسك العمرة أو الحج.. فلا غناء لهم عمن ينهض بإتيانهم بما يحتاجونه.. إنهم يخافون «العَيْلَة».. وخاف البعض من انقطاع تجارته، فهل يجوز لهم الاستعانة بالمشركين إذا خافوا الحاجة إلى ما يحتاجون إليه بأم القرى حيث بيت الله الحرام..».

«النبى ﷺ فى تحنثه وتبتله، وذكره وتسبيحه، ومناجاته لربه.. يوافيه جبريل عليه السلام، فيلقنه من كلمات ربه..».

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة التوبة: آية ٢٨].

(يرتفع الوحى)

* * *

«المدينة المنورة فى منتصف ذى القعدة للسنة العاشرة للهجرة، ونسائم الحج تهب على المدينة المباركة تيمنًا بالخروج إلى الحج رفقة الرحمة المهداة عليه السلام.. يفد إلى المدينة وفد بنى محارب بنجد.. فى عشرة نفر.. فيهم «سواء بن قيس المحاربى»، وابنه خزيمة بن سواء.. فجلسوا مع رسول الله عليه السلام وأسلموا، واعتذروا عما كان منهم من عداوة للإسلام، وقالوا: نحن يا رسول الله قد جئنا تائبين، ونحن على مَنْ وراءنا.. فطفق عليه الصلاة والسلام يبسط لهم الإسلام ويبين لهم فرائضه..».

«النبى عليه السلام يطيل النظر إلى واحد فى الوفد، فيحس الرجل بوقع نظراته عليه السلام، وكان قد أساء إليه حين عرض نفسه عليهم فى سوق عكاظ. المحاربى يغالب تحرجه، فيبادر..».

المحاربى : (للنبى) كأنك يا رسول الله رأيتنى!

النبى : (للمحاربى) أجل. لقد رأيتك.

المحاربى : (مقرًّا) أى والله؟ لقد رأيتنى وكلمتنى وكلمتك حينذاك بأقبح الكلام، ورددت عليك بعكاظ بأقبح الرد وأنت تطوف على الناس!

النبى : (فى تسامح) نعم.

المحاربى : (نادمًا) يا رسول الله.. ما كان فى أصحابى أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الإسلام منى! فأحمد الله الذى أبقانى حتى صدّقت بك.

النبى : القلوب بيد الله عز وجل.

المحاربى : يا رسول الله.. استغفر لى ما كان من مراجعتى إياك.

النبى : إن الإسلام يجب ما كان قبله من الكفر..

«النبى عليه السلام يدعو لهم، ويمسح على رأس خُزَيْمة بن سواء ويباركه، ويكلف بعضًا من المسلمين ليبسطوا لهم الإسلام، ويقرأوا عليهم القرآن، ويعلموهم الفرائض، ليعودوا موفورين إلى بلادهم وينشروا الإسلام حيث يريد الله..».

* * *

«المدينة المنورة، فى ذى القعدة للعام العاشر للهجرة قبيل الحج مع رسول الله، يتذاكر المسلمون ما كان من أمر بنى سُلَيم وقدومهم بالمئات وإسلامهم فى عام الفتح فى السنة الثامنة للهجرة، وشهودهم فتح مكة، والطائف، وحنينًا.. وها قد مضى عامان، وانتشر الإسلام بينهم وفى ربوع الجزيرة العربية..».

«المسجد النبوى، وقد حَفّ به مائة رجل قادمين من بنى سليم، ينشدون الخروج للحج إلى بيت الله الحرام.. يستقبلهم المسلمون بالمسرة، وتتجاوب أصداء التكبيرات والترحيب بهم فى جنيبات المسجد النبوى الذى صار يغص بالمسلمين من شتى أنحاء الجزيرة العربية وما حولها..

يتطلــع الجميع إلى ميقات الإحرام للخروج رفقة الرحمــة المهداة للحج إلى بيــت الله الحرام..».

* * *

«فى ذى القعدة قبل مطلع ذى الحجة بالعام العاشــر للهجرة، حال الاستعداد للخروج للحج مع رسول الله عليه السلام.. وقد انصرمت شهور علــى مــا فعله الحُطَــمْ بن هند البكــرى، وبلغ المســلمين أنه قد قدم حاجًّا إلى بيت الله الحرام، وأنه قــد قدم الهــدى والقلائد، وأهــلَّ للحج، فأرادوا أن يلاحقوه على ما سبق من أَخْذِهِ بعض سَــرْح المدينة.. فتوجهوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليستأذنوه فى طلبه.. قد اشتد عليهم أن يروا فى المعتمرين بعض من ســبق أن صدوهم عن زيــارة بيت الله الحرام فى عام الحديبية، فقالوا لرسول الله ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم.. وجعل البعض يقول للرســول عليه الســلام..».

بعض الحجيج : يا رسول الله، إنما هؤلاء مشركون كمثل هؤلاء، فلن ندعهم إلاَّ أن نصدهم عن البيت الحرام!

«النبى عليه الســلام لا يجيب المســلمين إلى طلبهم أن يعرضوا للحطم أو لغيره ممن أتوا حاجين إلى البيــت الحرام.. وإنه عليه الصلاة والســلام لفى ذكره وضراعته ودعائه بموقفه بعرفة، يتنزل عليــه الروح الأمين، فيوحى إليه من كلمات ربه

بالنهـــى عن التعـــرض لمن جاء بالبيـــت الحرام حاجًـــا أو معتمرًا.. وألا يجرمنهم شـــنآن قوم أن صدوهم سلفًا عن المســـجد الحرام أن يصدوهم أو يعتدوا عليهم.. النبى عليه السلام يصغى مليًا إلى ما جاءه به جبريل عليه السلام..».

جبريل : (يتلو على محمـــد) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [سـورة المائـدة: آيـات ١ -٣].

(يرتفع الوحى)

* * *

«المدينـــة، وعين النبى عليه الصلاة والســـلام قريـــرة بدخـــول الناس فـــى ديـــن الله أفواجًا.. فطـــوال الســـنتين التاســـعة والعاشـــرة للهجرة، ووفود القبائل تفىء إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية لتعلن إســـلامها.. وآلت الأمور إلى ســـواء فـــى نجران واليمن، بعد بعثة خالد بن الوليد إلى نجران، وبعثتى على بن أبى طالب إلى همدان ثم مذحج، وما بعثه هناك معاذ بن جبل وأبو موسى الأشـــعرى ومـــن قبلهما أبو عبيدة بـــن الجراح، فدخلت معظم اليمن فى دين الله راضية مرضية، وبلغ من رضاها وإقبالها عليه أن اعتنقه نصارى نجـــران وقدم وفدهم إلى المدينة ليعلنوا إســـلامهم بين يدى الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام..».

«النبى عليه الصلاة والسلام يرنو ببصره وقلبه إلى البيت الحرام، فقد طالت أشـــواقه إلى الحج، وأزمع ذلك فى العام التاسع للهجرة، ولكنه تمنى ألاَّ يحج إلاَّ بعد أن يتخلص الحرم من بقايا الشرك التى ظلت تحاصره فيمن لا يزالون من المشـــركين يحجون إلى البيـــت عرايا كما كانوا يصنعون فى الجاهلية، ويرتاد منهم الحرم المكى كما يشـــاء.. آثـــر عليه الصلاة والســـلام أن يتمهل بحجه إلى العام القابل، وأن ينـــدب أبا بكر الصديق للحج بالناس بذى الحجة للعام التاســـع للهجرة...».

«فى الحج بالعام الماضى، تنزلت سورة التوبة ناهية عن وجود المشركين بالحرم، وأرسل عليه الصلاة والسلام على بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر فى الحج ويتلو على الناس ما تنزل من سورة التوبة.. وأن ينادى بأنه لن يحج بعد ذلك العام مشرك، وألاَّ يطوف به عريان.. وتنقَّى الحرم المكى بذلك مما كان يحيق به من ارتياد وتصرفات أهل الشرك.. النبى عليه السلام، وقد قرت عيناه، وعزم على الحج إلى البيت الحرام، أَذَّن فى الناس بأنه يحج فى هذا العام العاشر للهجرة..».

* * *

«المدينة فى ذى القعدة من العام العاشر للهجرة، تموج منذ أَذَّنَ الرسول بخروجه للحج، بكثيرين قدموا من شتى أنحاء الجزيرة ليحجوا مع الرسول عليه السلام ويقتدوا به فى مناسكهم.. فلم يكن قد حج من المدينة إلى مكة طوال السنوات التسع الماضية، وطفقت المدينة تموج بالأفراح والبركات والرحمات والحجيج يتجهزون للحج إلى بيت الله المحرم..».

* * *

«المدينة فى الخامس والعشرين من ذى القعدة، يخرج الرسول عليه الصلاة والسلام من

داره متطيبًا مترجلا، لابسًا ثوبين: إزارًا ورداء، بعد أن صلى الظهر بالمدينة أربعًا.. وخرج معه أزواجه على الهوادج، وأهل بيته وعامة المهاجرين والأنصار وعامة الحجاج.. يرتدون أردية الإحرام البيضاء – فى أخوة لا فرق فيها بين غنى وفقير...

«فى ذى الحليفة، يصلِّى عليه الصلاة والسلام والحجيج من ورائه، صلاة العصر ركعتين، وبات بها ليلته، وصلى بها الصبح، ثم طلب الهدى بعد أن تطيب، وقد أهدى للكعبة أكثر من ستين ناقة.. وأشعر النوق فى جانبها الأيمن بما يدل على أنها هَدْىٌ موجه للكعبة. ووقف عليه الصلاة والسلام يقول للناس..

النبى : (مناديًا فى الحجيج) من أراد منكم أن يهل بحجة وعمرة معًا فليفعل، ومن أراد أن يهلّ بحج فليفعل، ومن أراد أن يهل بعمرة فليفعل.. (مستأنفًا) من ليس معه هَدْى وأراد أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه هَدَى لا يحل.

«النبى عليه السلام يوجه من معه هَدْى أن يقرن العمرة بالحج مثله.. ثم يركب راحلته القصواء، ويبدأ مسيرته المباركة تحف به الآلاف من الحجاج بين يديه وخلفه، وعن يمينه وشماله.. وطفق عليه الصلاة والسلام يهل فى مساره بالتوحيد..

النبى : لبيــك اللهم لبيك.. لبيك لا شــريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك..

«الحجيــج يرددون التلبية مع الرســول عليه الصلاة والســلام.. يسيرون راكبين ومترجلين فى الصحراء محفوفين بالبركات والرحمات.. وسارت الرحلة المباركة، تتردد أصداء تلبيتها فى جنبات البيــداء، ومرت فى طريقهــا بالأبواء، ثم بوادى عُسْفان، ثم بسرف، ومضت حتى نزل المصطفى ﷺ بوادى ذى طوى.. على مسافة نحو ميل من مكة المكرمة.. فبات عليه السلام بالوادى ليلته، وصلى الصبح به غداة الأحد لأربع خلون من ذى الحجة... ثم اغتسل عليه الصلاة والسلام ونهض ميممًا شطر مكة من أعلاها من الثنية العليا (كداء) التى تشــرف علــى الحَجُون.. ونــزل بالأبطح، فلما بــدا له البيــت الحرام رفع يديــه داعيًا..

النبى : (ويــداه مرفوعتــان) اللهم زد هذا البيت تشــريفًا وتكريمًا ومهابة وتعظيمًا، وزد من عظمة مَنْ حَجَّهُ واعتمره تشــريفًا وتعظيمًا ومهابة وبرًا..

* * *

«النبى عليه الصلاة والســلام يتجه ومن ورائه الحجيج إلى الكعبة المشــرفة، فيدخل ومن ورائه الحجــاج مــن باب عبــد مناف ويقــال له باب

بنى شـيبة، ويخـرج من باب بنـى مخزوم إلى الصفا، ينظر إلى البيت ويسـتقبله ثم يرفع يديه ويكبر ويقول..

النبى : (رافعًا يديه) اللهم أنت السـلام، ومنك السلام، فحينا ربنا بالسـلام.. اللهم زد هـذا البيت تشـريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة، وزد من عظمة من حجه أو اعتمره تكريمًا وتشريفًا وتعظيمًا وبرًا...

«النبى عليه الصلاة والسلام يدخل إلى المسجد، فيعمـد إلى البيت ولم يركع تحية المسـجد، فإن تحيته الطواف.. يبدأ عليه الصلاة والسـلام فى الطـواف قبل الصلاة، فيطوف بالكعبة سـبعًا.. يبدأ بالحجر فيسـتلمه، وتفيض عيناه بالدموع، ثم يرمل ثلاثًا، ويمشى أربعًا، حتى إذا فرغ يُقبِّلَ الحجر، ويضع يديه عليه ويمسح بهما وجهه.. يطوف عليه السـلام مُدْخِلاً رداء الطواف تحت إبطـه الأيمن ومغطيًا به إبطه الأيسـر.. فى كل طواف يستلم الحجر يمسح ويقبل الركن اليمانى والحجر الأسود وهو يقول: بسم الله، والله أكبر.

«النبى عليه الصلاة والسلام يأمر من يستلمون الركن اليمانى والحجر الأسـود أن يقولوا: بسـم الله، والله أكبر، إيمانًا وتصديقًا بما جاء به محمد. لا يزاحم عليـه الصلاة والسـلام عندما يحاذى الحجـر ويسـتلمه، ويقول لعمر بـن الخطاب:

يـا عمر إنـك رجل قوى لا تزاحـم على الحجر تؤذى الضعيف.. إنْ وجدت خلوة فاستلمه، وإلاَّ فاسـتقبله وهلل وكبر.. يقول عليه السـلام بين الركن اليمانى والحجر الأسود: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. [سورة البقرة: آية ٢٠١].

«النبـى عليـه الصـلاة والسـلام ينتهى من طوافه خلف مقام إبراهيم الخليل عليه السـلام.. يصلى عنـده ركعتين يقرأ فى كل منهما سـورة الفاتحة وسورتى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سـورة الإخلاص]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سـورة الكافـرون].. ثم يخرج عليه السـلام إلى الصفـا قائلا.. إن الصفا والمروة من شعائر الله..

«علـى الصفا يقـف عليه الصلاة والسـلام، ويقـول: أبدأ بما بدأ بـه الله.. إنه عليه الصلاة والسلام بسبب الشكوى التى يشكو منها، يسعى بين الصفـا والمروة على راحلتـه.. عندما يصعد

الصفا، يستقبل البيت ويكبر سبع تكبيرات، ويقول: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».. على المروة يدعو عليه السلام ويصنع ما دعا وصنع على الصفا.. عندما ينزل من الصفا إلى المروة يهرول فى بعض الطريق أثناء السعى وهو يقول: «رب اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم».

«النبى عليه السلام وقد أكمل الطواف والسعى، يقف ليقول للحجيج إن من ليس معه هدى يصوم ثلاثة أيام، وعليه بالإحلال من إحرامه والتحول إلى المتعة لمن كان قارنًا بالحج أو كان قد أحرم بالعمرة وحدها، وأن يبقى كذلك إلى يوم التروية الثامن من ذى الحجة.. وهو يوم منى حيث يهلون من هناك بالحج، ويحرمون عند سيرهم إلى منى.

«النبى عليه السلام يأمر القارن الذى معه الهدى بالبقاء على إحرامه قارنًا مثله.. فلا يحل إحرامه حتى ينحر الهدى..

«أبو بكر وعمر وطلحة والزبير قد ساقوا معهم الهدى فلم يحلوا إحرامهم، وهم قد قرنوا الحج بالعمرة كما صنع الرسول عليه الصلاة والسلام.. وأمهات المؤمنين لم يسقن هديًا وهن قارنات

حجًّا وعمرة فأحللن، وفعلت مثلهن فاطمة بنت الرسول وأسماء بنت أبى بكر.. ولم تحل أم المؤمنين عائشة من أجل الحيض.

«على بن أبى طالب يلحق بالحج قادمًا من اليمن، فيلقى زوجته فاطمة قد أحلت، فينكر ذلك عليها، فتقول له: أمرنى بذلك أبى، فيسأله على فيقول له الرحمة المهداة عليه السلام: صدقت. يسأله عليه الصلاة والسلام بما أحللت يا على؟ فيقول على: سقت الهدى، وقرنت العمرة بالحج، فيقول له النبى عليه السلام: «إذن لا تحل مثلى».. فى أسفل الوادى، يسأله سراقة ابن مالك بن جعشم عن المتعة لما أمرهم عليه الصلاة والسلام بنسخ الحج إلى العمرة والإحلال:

سراقة بن مالك : ألعامنا هذا يا رسول الله أم للأبد؟..

النبى : (وقد شبك أصابعه واحدة فى الأخرى) لا، ثلاث مرات.

النبى : (مستأنفًا) إنها لأبد الأبد. «الناس يحلون إحرامهم إلاَّ النبى ومن معه هدى»..

«النبى عليه الصلاة والسلام يخطب بمكة قبل يوم الترويه بيوم.. وفى ضحى يوم الخميس: يوم التروية الثامن من ذى الحجة، يتوجه عليه الصلاة والسلام بمن معه من المسلمين إلى منى.. يحرم بالحج كل من أحل منهم فى رحالهم.. لا يدخلون المسجد ليحرموا منه، بل يحرمون ومكة

خلــف ظهورهم.. فى منى، ينزل عليه الســلام يصلى بالمسلمين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء.. يبيتون بها ليلة الجمعة.. مع طلوع الشمس يسير الرســول عليه الســلام ومعه الحجيج إلى عرفة، علــى طريق ضب، والصحابة بين الملبى والمكبر، ولا ينكر عليه الصلاة والسلام على هؤلاء وأولاء..

«فــى منًى بمناســك الحــج مع رســول الله عليه الصلاة والســلام، يرى الرحمة المهداة وَفْدَ تُجيب وســط الحجيــج إلى بيــت الله الحرام.. يلاقون المصطفى عليه الصلاة والســلام فى منى، فيلحظ غياب غلام كان معهم حين قدموا المدينة فأســلموا، وعرف يومها أنه من بنى أَبْذَى، ولما ســأله عن حاجتــه، قال الغــلام: لا حاجة لى كحاجة أصحابى، ما أريد إلاّ أن تســأل الله عز وجــل أن يغفر لى ويرحمنى وأن يجعل غنى فى قلبى. يفتقده الرحمة المهداة بين حجاج تُجيب، فلما لم يجده، سألهم عنه، فقالوا..».

حجاج تجيب : يــا رســول الله، والله ما رأينا مثله قــط، ولا حُدِّثنا بأقنع منه بما رزقه الله. لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها..

النبى : (داعيًا له) الحمد لله إنى لأرجو أن يموت جميعًا.

أحدهم : تشعّبُ أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا.. فلعل أجله يدركه فى بعض تلك الأودية فلا يبالى الله عز وجل فى أيها هلك.

* * *

«فى عرفة، يتجه عليه الصلاة والسلام إلى قبة من شعر كانت قد ضربت له فى عرفة، نام عليه السلام نومة الظهيرة فى ظل صخرة، وأزواجه فى قباب خزّ.. مع زوال الشمس، يأمر عليه الصلاة بناقته القصواء، ثم يركبها ويقول: اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة..

«فى بطن الوادى من أرض عرفة، يتوقف ﷺ، ليخطب فى الناس.

النبى : (خطيبًا فى الحجيج) أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليردها لمن ائتمنه عليها، ألا إن كل شىء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمى، وإن أول دمائكم أضع، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ربيعة، وإن كل ربا موضوع، ولكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وإن أول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

أما بعد.. أيها الناس.. الشيطان قد يئس أن يُعْبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم.

أيها الناس إن النسىء زيادة فى الكفر، يُضل به الذين كفروا يُحلونه عامًا، ويحرمونه عامًا،

ليواطئــوا عــدة ما حرم الله فيحلــوا ما حرم الله ويحرمــوا ما أحــل الله، وإن الزمان قد اســتدار كهيئته يوم خلق الســموات والأرض، السنة اثنا عشــر شهرًا، إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شــهرًا منها أربعــة حُرُم، ثلاثــة متوالية: ذى القعدة وذى الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جُمادى وشعبان.

أمــا بعد أيهــا الناس.. اتقوا الله واســتوصوا بالنســاء خــيرًا، فإنهن عندكم عــوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واســتحللتم فروجهن بكتــاب الله، ولكم عليهن حــق، ولهن عليكم حق، لكــم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فــى المضاجع وتضربوهن ضربًــا غير مبرح، فإن انتهين فلهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

فاعقلــوا أيها الناس قولى – فإنى قد بلغت – وقــد تركت فيكم ما لن تضلــوا بعدى أبدًا – إن اعتصمتم به – أمرين: كتاب الله عز وجل وسنتى.

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه، تَعْلَمُنّ أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامــرئ من أخيه إلا ما أعطــاه عن طيب نفس، فلا تظلمُنّ أنفسكم واعلموا أن القلوب لا تغل على

ثلاث: إخلاص العمل لله عز وجل ومناصحة أولى الأمر، وعلى لزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم، ومن تكن الدنيا نيته يجعل الله فقره بين عَيْنَيْه ويشتت عليه ضَيعته، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له، ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه فى قلبه، ويكفيه ضيعته وتأتيه الدنيا وهى راغمة، فرحم الله امرءًا سمع مقالتى حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، أرقاؤكم أرقاؤكم أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، فإن جاء بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله، ولا تعذبوهم، أوصيكم بالجار.. وأكثر حتى قال السامعون إنه سيورثه.

أيها الناس: إن الله قد أدى لكل ذى حق حقه، وإنه لا يجوز وصية لوارث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، ومن ادّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، العارية مؤداة، والنحلة مردودة، والدين منقضٍ مقتضٍ والزعيم غارم.

أما بعد: فإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من هاهنا عند غروب الشمس حتى تكون الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال على رؤوسهم. هدينا مخالف هديهم، وكانوا

يدفعون من المشعر الحرام عند طلوع الشمس على رؤوس الجبال مثل عمائم الرجال على رؤوسهم. ويقولون: أشرق ثبير كيما نغير فأخر الله هذه وقدم هذه، قدم المزدلفة قبل طلوع الشمس، وأخر عرفة إلى أن تغيب الشمس، وإنا لا ندفع من عرفة حتى تغيب الشمس، ولا ندفع من المزدلفة حتى تطلع الشمس، هدينا مخالف لهدى الأوثان والشرك.

النبى : (مناديًا عليه فى الناس) إنكم سوف تسألون عنى، فماذا أنتم قائلون؟

الحجيج : نشهد أنك بلغت، وأديت، ونصحت...

النبى : (يرفع سبابته إلى السماء وينكثها على الناس قائلا) اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد..

«النبى عليه الصلاة والسلام يأمر الناس أن يرتفعوا عن بطن عُرْنة، ويقف من لدن الزوال إلى غروب الشمس وهو يدعو الله تبارك وتعالى ويبتهل ويتضرع إليه رافعًا يديه إلى صدره كاستطعام المسكين.. ويخبر الناس أن خير الدعاء يوم عرفة..

النبى : (داعيًا) اللهم لك الحمد كالذى نقول وخيرًا مما نقول. اللهم لك صلاتى – ونسكى ومحياى، ومماتى، وإليك مآبى، ولك تراثى. اللهم إنى أعوذ بك من شر ما يجىء به الريح، ومن شر ما يلج فى الليل، وشر ما يلج فى النهار، وشر بوائق الدهر.

«مع نهاية الخطبة النبوية، والدعاء.. يؤذن بلال بن رباح، ويقيم الصلاة.. النبى عليه الصلاة

والسلام يصلى الظهر قصرًا: ركعتين، ثم يقيم بلال الصلاة ثانية، فيصلى النبى العصر قصرًا: يجمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين فى وقت الظهر.. بعد الصلاة، يركب النبى حتى يأتى الموقف، فيجعل بطن ناقته إلى صخرات مفترشات فى أسفل جبل الرحمة وسط أرض عرفات.. يستقبل القبلة ويظل واقفًا حتى غروب الشمس.. يتلو فى الناس ما كان قد تنزل عليه من سورة المائدة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾..

«المسلمون يسمعون إلى الآية بقلوب واجفة، وتنهمر عبراتهم تأثرًا وهم يتأملون فى معنى الآية».

«النبى عليه الصلاة والسلام فى موقفه، تتوارد الخواطر، وتفيض المشاعر عرفانًا بما مَنَّ الله تعالى به على رسوله وعلى المسلمين، فنصرهم وأعز دينه.. وطفق الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا، حتى أتوا للحج فى هذا المشهد العظيم. يتنزل عليه جبريل فيوحى إليه من آيات ربه..

جبريل : (يتلو على محمد) ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر].

(يرتفع الوحى)

* * *

«الحجيج تختلط فى نفوسهم الأفراح بالدموع.. تفيض قلوبهم ووجداناتهم بشكر الله على جزيل نعمه وفضله، وتسبقهم دموعهم وقد أحسوا أن السورة تنعى إلى النبى عليه السلام نفسه.. ويقول بعضهم أنهم سمعوه يقول بجنان ثابت، وقلب راض، ولسان شاكر «نُعيت إلىّ نفسى، كأنى مقبوض فى تلك السنة».. الجميع تأخذهم أجواء الحج ومناسكه، فيمضون إلى ما كانوا فيه حول ووراء الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام..

«فى العشية، يسير عليه الصلاة والسلام على راحلته، والمسلمون من حوله، من عرفة إلى المزدلفة.. إذا وجد فسحة بين الناس أسرع، وإذا لم يجد أبطأ ويأمر الناس بالتؤدة والسكينة.. يصلى عليه الصلاة والسلام المغرب والعشاء بالمزدلفة بأذان واحد وبإقامتين، لكل صلاة منهما إقامة.. ثم يضطجع إلى قرب طلوع الفجر.. يستيقظ عليه الصلاة والسلام فى الفجر، ويأذن للضعفاء من الذرية والنساء فى التقدم من المزدلفة.. يصلى عليه السلام الصبح فى المزدلفة بأذان وإقامة، ويركب راحلته قبل طلوع الشمس داعيًا الله فى سيره ومكبرًا ومهللاً وموحدًا.. يحمل معه من المزدلفة حصى العقبة.. ويسرع فى وادى محسر بالمزدلفة إلى منى دون أن يقطع التلبية حتى يرمى جمرة العقبة.. سبع حصيات

وهو علـــى راحلته.. وهى الجمرة الكبرى.. يكبر عليه الصلاة والسلام مع كل حصاة يرميها إلى بطن الوادى.. يقول عليه السلام للناس وقد تزاحموا..

النبى : (مناديًا فى الحجيج) يا أيها الناس لا يقتل بعضكم بعضًا، وإذا رميتم الجمرة فارموا بمثل حصى الخذف.. خذوا عنى مناسككم، فإنى لا أدرى لعلى لا أحج بعد حجتى هذه!

«الرسول عليه الصلاة والسلام فى المنحر بمنى، يقوم بالنحر ذكرى لأضحية إبراهيم عليه السلام يـــوم افتدى الله ابنـــه إسماعيل بكبش عظيم... يخطب عليه الســـلام فى النـــاس، فيقول لهم..

النبى : (خطيبًا فى المسلمين) أيها الناس، أى يوم هذا؟

المسلمون : (مجيبين) يوم حرام؟

النبى : فأى بلد هذا.

المسلمون : بلد حرام.

النبى : فأى شهر هذا؟

المسلمون : شهر حرام.

النبى : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليك حرام، كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا...

«النبى عليه الصلاة والسلام يكررها مرارًا.. ثم يقول فى الناس، رافعًا رأسه إلى السماء.

النبى : اللهم هل بلغت. اللهم هل بلغت. اللهم فاشهد..

المسلمون : (مرددين) اللهم فاشهد..

* * *

«النبى عليه الصلاة والسلام ينهض فى يومه: يوم السبت راكبًا إلى مكة، يطوف طواف الإفاضة قبل الظهر.. ويشـرب بالدلو من ماء زمزم، ومن نبيذ السـقاية: مـاء به زبيـب، ويصلى الظهر بمكـة، ثم يعود إلى منـى، ويظل بها طوال أيام التشريق من يوم السبت إلى مغرب يوم الثلاثاء.. يواصـل فيها رمى الحجـارة ويكبر مع رمى كل جمـرة .. يأمـر عليه الصلاة والسـلام فى اليوم الثالث عشر من ذى الحجة أن تضرب له خيمة بالأبطح فى مكة.. يـأوى إليها ليزور فى مقامه بمكة قبر خديجة وقبر عمه أبى طالب.

«النبـى عليه الصـلاة والسـلام، وقد دخل مكة فى الليل سـحرًا قبل صـلاة الصبح من يوم الأربعاء، يأمر النـاس أن يكون الطواف بالكعبة آخر عهدهم بمكة، ثم يرجع عليه الصلاة والسلام إلى منـى، ويأمر بالرحيل إلى دار الهجرة.. يدعو فى طريق العودة، والمسلمون يرددون وراءه الدعاء فتهتز لأصدائه البيداء.. على مشـارف المدينة، يكبر ثلاث مرات، ثم يقول..

النبى: (مردداً والمسلمون من ورائه) لا إله إلاّ الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير.. آيبون تائبون عابدون سـاجدون لربنا حامـدون. صدق الله وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده..

«النبى عليه السلام والمسلمون يرددون الدعاء حتى يدخلوا المدينة وقد أدوا مناسكهم وقرت عيونهم بما بذلوه فى أداء الفريضة، والتقرب إلى الله عز وجل، قيوم السموات والأرض..».

* * *